

## التصوف بين التأصيلية والتأثيرية

جامعة وهران -2-

الباحث: بن صافي سعيد

### ملخص:

اغتراب التصوف يتمثل في تلك النظرة التصنيفية القائمة على أساس تكريس الفكر المركزي الأوروبي أو النظرة النصية القائمة على الفهم الفقهي الضيق أما استمراريته فتتمثل في التوارث الذي حمل لواءه الحكماء المتألهون بدءا من أفلوطين وانتهاء إلى الأفلاطونية المحدثة والذي يأخذ طابع ثقافة وملة ولغة كل امة وأكمل صورة جدد فيها التصوف باعتباره الحكمة هي الديانة الإسلامية.

### الكلمات المفتاحية:

اغتراب، التصوف، استمرارية، الحكماء المتألهون ، التصنيفية، النصية، الحكمة، تكريس

### مقدمة :

تختلف المواقف من التصوف كممارسة وعرفان بين نزعة تأصيلية تقف موقفا دفاعيا شبيها بالجدل الكلامي القائم على المحاججة والانتصار على الخصم ، ونزعة عدمية تنفي أصالته بممارسة نصية ظاهرية، وبين تأويلية تستثمر شتى المناهج التي أنتجت عقلانية الغرب الحدائي المتحرر من كل تفسير غيبي ميتافيزيقي قائم على أسبقية المعارف الروحية والقلبية على المعارف العقلية الذهنية.

وهذا الزخم من الاختلاف جعل التصوف كسبيل للعرفان وطريق للوصول إلى الحقيقة يحيا شكلا من الاغتراب وذلك بإعادة صياغته صياغة أفقدته هويته وماهيته\* حيث تم اعتباره فرعا من الفلسفة الاشرافية وهذا لضمان مركزية الفكر الأوروبي حسب تعبير الجابري وهذا اعتقادا منهم أي الأوروبيين أنهم الورثة المباشرين للفكر اليوناني ( والأغرب في هذا الصدد هو إن الأوروبيين يعتبرون أنفسهم كأنهم الورثة المباشرين للحضارة اليونانية القديمة)<sup>1</sup>

وهذا يؤول في النهاية إلى نفي التجديد والابتكار وما جاء به المتصوفة ما هو إلا نسخ لما قال به الفلاسفة وحكماء اليونان من أفلاطون، فيثاغورس، أفلاطون، وامبودوكليس وهذا اعتمادا على المنهج الفيل ولوجي الذي اثبت عجزه في ميادين المعرفة (وإذا كانت توجد بلا مرء تشابهات بين التصوف الإسلامي والمذاهب المماثلة في الملل الأخرى فتفسير هذا لا يحتاج إلى اللجوء إلى افتراض تفسيرات وهمية وذلك لان الحقيقة واحدة وبالتالي فجميع المذاهب التراثية القويمة متطابقة في جوهرها مهما كان تنوع الإشكال التي تكتسبها)<sup>2</sup>

وهناك من يعتبر المعارف والعلوم التي يدعيها المتصوفة ضرب من السرد الأسطوري المنافي للعقل والعقلانية كما هو الحال عند الجابري الذي التمس له أصلا هرمسيا قائما على الأسطورة الفلكية .

كما إن تبني فكرة التطور الدروينية وتطبيقها على تاريخ التصوف الذي بدأ ساذجا قائما على الممارسة العملية البعيدة عن كل تأمل فكري فلسفي منتهيا إلى صياغة نظريات فلسفية عند الاتصال بالفكر اليوناني

وهذا ما غيب الوحدة السارية لجميع الأطوار التي عرفها التصوف ، فبالعودة إلى طبقات الجنيد الذين يصنفون ضمن التصوف السني والمتأخرين ضمن التصوف الفلسفي نجد أن كلاهما يتفقان على ضرورة التزام الشريعة وتزكية النفوس من

الارجاس والتحرر من ربكة الاغيار وذلك بصدق التوجه إلى الله من خلال الزهد والمراقبة وصفاء الإسرار وعلو الهمة

فمن أسباب الاغتراب التي مر بها التصوف قديما والاقتصار على مجرد المناهج اللغوية والمنطقية الفقهية المعروفة عند علماء الظاهر وأساتذة الشريعة (والحق إنالتصوف عربي والقران عربي وهو الذي يوجد فيه مبادئه مباشرة على انه للعثور على هذه المبادئ لابد أن يفهم القران وتفسير وفق الحقائق العرفانية التي تشكل معناه العميق)<sup>3</sup>

إضافة إلى النزعة التصنيفية للتصوف إلى نسبي وفلسفي وهذا تأثرا بالمدرسة الاستشراقية وان لم يرد هذا التصنيف عند قدماء المتصوفة والمتأخرين منهم كالجنيد وعبد الرزاق القاشاني وزروق الفاسيو إقامة فروق مصطنعة من إنتاج الخيال كقول صاحب هذا النص (الاختلاف إنما يكمن في إن رواد التصوف الفلسفي يعمدون إلى إنتاج خطاب خاص تتداخل فيه أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية الفلسفية خطابا له طابع ثيوسوفي)<sup>4</sup>

وتفسير هذا الخلط يعود إلى تقلص التربية الروحية والموروثية عن الأنبياء واختزلها إلى نظريات فلسفية (علوم الحكم الادريسية استمرت متوارثة عند الأمم بواسطة الحكماء المتألهين.أحيانا كان بعدها الروحاني يتقلص بانقباض من التربية الروحية العملية التي شرعها الأنبياء فتحول إلى نظريات فلسفية يغلب عليها تصرف الفكر والنظر العقلي)<sup>5</sup>

إن هذا لا يلغي دور العقل بقدر ما يحدد مجال اختصاصه وهذا ما يحاول دعاة العقلانية الترويج دون تمحيص لان للعقل طورا لا يتجاوزه (وهذا الحد هو نقطة انتهاء مجال العقل ليتحول من أداة فعالة إلىأداة منفصلة مسائرة للكشف نحو المطلق فتتخلص من قواعد وقوانين العقل كما تتخلص الأرواح من الأبدان وكل

نقص يعيق إلى الكمال وهذا ما قصده ابن عربي بطيران الأرواح من المواد والأعناق من الأجساد).

بل إن موقف العقلانيين يتجاوز الحدود محاولة المعرفة إلى تجاهل هذا الجانب الروحاني (بل يصل بهم الحال إلى التبجح لجهلهم لهذه الأمور كأنه في أعينهم من علامات السمو يفترض أن ثقافتهم أتاحتهم لهم)<sup>6</sup>

هذه بعض الأضواء على الاغتراب الذي عاشته وتعيشه التربية الروحية أو العرفان وبعيدا عن الدراسات التي تقام محاولة منها لفهم الفروقات في الديانات والملل التراثية القائم على منهج المقارنة والتأثير الذي قيل عنه (ولذا يبقى منهج التأثير والتأثؤ وقانون العلة المعلول منهجا قاصرا في الكشف عن الحقيقة في أوسع تجلياتها لأنه يفرض على الظاهرة الصوفية شكل قبلي وتعسقي ، منهجا مستوحى من منظور كلاسيكي لعلوم الطبيعة والذي يحدد الظاهرة بسبب وحيد)<sup>7</sup>.

### استمرارية الحكمة:

هل مصدر الحكمة الوحيأم العقل المتجليفيما نقل إلينا من فلسفات وتحليلللإجابة عن هذا السؤال لا بد من تحديد مفهوم الحكمة عند من يمثلون التصوف القائم على الحكمة أي المدرسة الاكبرية(والحكيم الكامل عند الشيخ هو المتمكن نظريا وعمليا من العلوم الأربعةالإلهي والرياضي والمنطقي والطبيعي لمعرفة موازينها)<sup>8</sup> والموازن تتمثل في موازين الحروف يتمثل في قدر كييفي يحدد طبيعته وكبي يتمثل في قيم إعدادها- وفي معناها الواسع تشمل شتى العلوم.(في تناسق بديع للغاية جميع العلوم والفنون من الرياضيات والكيمياء والطب والفلك والنحو والصرف والموسيقى والشعر إلى الخط والفن المعماري ومختلف الحرف تتناسق كلها كمظاهر مختلفة للعلم الأصلي الذي صيغت منه واليه تؤول "هو علم التوحيد"<sup>9</sup>

كما انه من معاني الحكمة هو معرفة المناسبات بين الأشياء والتحقق بالحكمة من الجانب العلمي والروحي." أما جانبها العملي التفصيلي فيتمثل في كيمياء السلوك

العرفاني بالفكر والنظر عند الفيلسوف والذكر والاستقامة الشرعية عند التابع للرسول وهو الأكمل والأسعد والأعلى عند الشيخ<sup>10</sup> أي ابن عربي والفرق بين المعرفة التي سيصل إليها الفيلسوف وتلك التي وصل إليها الصوفي هو عدم قبول الشبه القادحة فيه أي معرفة شهودية عينية ترى الحقيقة على ما هي عليه "وما يجب لكل شيء" التدقيق هو المقام الذي لا يقبل الشبه القادحة فيه وهو معرفة ما يجب لكل شيء من الحق الذي تطلبه ذاته فيوفيه ذلك علما"<sup>11</sup> والفرق بين المسلكين والمنهجين والتصويرين هو أن الصوفي يرى أن الإنسان والعالم ذاته حجاب ووسيلة للمعرفة في حين يرى الفيلسوف أن العقل هو وسيلة المعرفة " إن كل ما سوى الحق حجاب وان اكبر حجاب الإنسان ذاته فينبغي أن يسعى الإنسان لإزالة هذا الحجاب بالفناء عن صفاته البشرية والتشبهه بالله والتحلي بالصفات الإلهية فحينئذ يحق الوصول إلى رفع الحجاب"<sup>12</sup>

أي المتألهين وينبغي التفرقة بين الفلاسفة ذوي النزعة العقلية الصرفة والحكماء مزجوا بين النزعتين كإفلاطون وأفلاطون. أما من ناحية المنهج فالعالم يستدل بالعالم والمخلوقات على الخالق أما العارف يتبع الطريق النازل أي يستدل على العالم بوجود الله إذ لا وجود حقيقي لها إي اعتباري وهذا ما نجد صورته فيما يسمى بوحدة الوجود".

وهذا المنهج نجده في التراثيات الروحية للشرق التي ترى عدم التعلق بالأشياء لأنها نفسها عدم وعند التصوف الإسلامي عدم الالتفات إلى ثمرات العمل لأنه من خلق الله وليس الإنسان وفي الكتب الهندوسية المقدسة العمل بلا شهوة والتحرر من الكثرة وحسب التعاليم الطاوية السكينة والسلام والحضور الإلهي والتحقق بالوحدة أيان هناك توافقا بين المناهج التراثية كما يقول René Guenon "وإذن فهناك تحضير للحكمة اسمي من الفلسفة وهو لا يلجا إلى العقل وإنما إلى النفس والروح وهو ما يمكنه تسميته بالتحضير الباطني ويبدو وانه كان الطابع المميز لأعلى درجات مدرسة فيتاغورس<sup>13</sup> وقد امتد أثره من خلال مدرسة أفلاطون إلى أن وصل إلى أفلاطونية

الحديثة" والمعروف أن الشرق كان يتمتع بهذه الثقافة الروحية التي تعترف على الروح والنفس لطريقة المعرفة وأثرت على الفلسفة اليونانية" والتعليم الباطني كان معروفا في بلدان الشرق قبل انتشاره في اليونان حيث أطلق عليه علوم الأسرار والفلاسفة الأوائل سيما فيتاغورس ربطوا تعليمهم بهذه العلوم .. حيث انه تعبير جديد لمفاهيم قديمة"<sup>14</sup>

كما أن الاستمرارية لم تقتصر على الشرق وإنما في ارويا العصور الوسطى" ويبدو إن هذا التعليم كان موجودا كذلك في الغرب خلال العصر الوسيط ولو انه أمسى اليوم مفقودا تماما"<sup>15</sup>

حين نجد توما الاكوينى يرى إن المعارف موجودة داخل أنفسنا وليس خارجها وهذا ما عبر عنه الحكماء اليونان "كل ما تعلمه الإنسان موجود سبقا في قرارنفسه"<sup>16</sup> والتجارب مساعدة على الوعي والتذكر فقط أي أن المعرفة جوهر وعي الإنسان يوصله إلى المعرفة الحقيقية وهذا ما أشارت إليه جميع الملل والثقافات الروحانية. وسأكتفي بإيراد نص من التاسوعا تبين فكرة الاستمرارية البعيدة عن فكرة التأثير والتأثر الملق يقول عن عدم جواز كشف الأسرار الدينية لغير أهلها كما يقول لذلك الصوفية المسلمون ومسيحيو القرون الوسطى " وهذا ما تعنيه الوصية في الأسرار الدينية بان لا تكشف تلك الأسرار لغير ، فمادام السرالديني أمرا غير مكشوف منعت الوصية من كشفه لغير الذي أسعده الحظ فيشاهده هو بذاته"<sup>17</sup>.

فما نراه نحن قائم على العقل والاعتباس هو في حقيقة الأمر ميراث نبوي للحكمة الإلهية المتجددة عبر العصور" لان العلوم الادريسية توارثتها الأمم بعد رفعه إلبان ظهرت وازدهرت في الحضارات الكلدانية والعربية القديمة ثم المصرية والإسرائيلية واليونانية وأخيرا الإسلامية"<sup>18</sup>

وهذه العلوم لم تكن مفصلة"كانت مجملة في قواعد ومبادئ أصولية عامة قوالها ثابتة ولا تصبح حية إلا بتجديدها وفق شريعة ولغة وملة الأمة المعنية وقد تم هذا بأكمل صورة عند حكماء المسلمين"<sup>19</sup>.

هذه الاستمرارية كانت لها انزياحات في مجال المعرفة وحقول الفلسفة فيما يتعلق بالتصوف الإسلامي كصورة نهائية تبلورت فيها الحكمة الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم"ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولي الأبواب"وصاحب اللب هو الذي يصل إلى عمق وجوهر الأشياء ليدرك الترابط والمناسبة .

ففي القرون الوسطى تأثر دانتي صاحب الكوميديا الإلهية بالشيخ الأكبر ابن عربي حيث تحدث عن جهنم وطبقاتها وهذا ما أثبتته المستشرق الإسباني بلاثيوس.

وموضوع التصوف أثار اهتمام المستشرقين منذ العصور الوسطى"رامون لول"(one veille) الذي هو صاحب الدراسة الأولى التي لفتت نظر رابطة العدوية ناسكة القرن 8م انتهاء إلى ارنولد تيلسون (1868-1945) لويس ماسنيون (1883-1962) هنري كوربان (1903-1978).

وكانت هذه الإثارة إما بمثابة تحدي معرفي دفعهم وإما إلى محاولة فهم التصوف إلى إعادة صياغته مما يخدم الأيديولوجية الاستشراقية التي عملت على إعادة صياغة الشرق وفق مفاهيم تعيد للغرب توازنه الذاتي كما عبر عن ذلك المفكر ادوارد سعيد في كتابه"الاستشراق وأهم مقولة مكرسة في الفكر الاستشراقي"إن التصوف نبتة غريبة في صحراء الإسلام"وكان مبعث هذه الفكرة تأكيد تأثير المسيحية على الإسلام وما يسمى عندهم بالنسك ولا يعني التربية الروحية بمعناها العميق لأن صاحبه لا يملك رؤية وغاية أيا ن اتصال المستشرقين بالتراث الصوفي صحح إلى حد ما النظرة السلبية للإسلام التي سادت في القرون الوسطى من انه دين عنف وقتال وهذا كرد فعل لانتشار الإسلام في ارويا فجهود

المستشرقين كانت بمثابة مد جسر التواصل والحوار لإدراك إن هناك وحدة بين جميع الملل والروحانيات.

وان كانت النظرة فيما نوع من القصور المعرفي حين رأوا أن النظرية الصوفية لم تكن وليدة الإسلام وهذا نوع من الغربية التي عاشها التصوف في الفكر الاستشراقي.

كما أن النظرية الصوفية عمقت نزعة البحث لدى الكثير من الفلاسفة "كسبينوزا" في حديثه عن وحدة الوجود وان كانت له تأثيرات يهودية في القبالة أي علم الإسرار عند اليهود. ولا تنسى تأثير المدرسة الأكبرية على الفكر الغربي الذي حاول أن يثبت صحة للثالوث المسيحي من خلال الدراسة وكان يمثل المسيحية في روحها وجوهرها .

إن الفكر الأوربي الحديث وجد العزاء في دراسة التصوف بعدما وقعت القطيعة بين الغرب ومعارفه الروحية وكأنه يبحث عن التوازن الروحي الذي فقده وهذا ما نلمسه عند هنري كوريان عند درس التصوف الفارسي أو الفلسفة الاشراقية بدءا من العطار وكل المتصوفة الذين كان من أصول فارسية وهذا بعد الحرب العالمية والأولى والثانية.

إما العصر الحديث فيبدو أن العقلانية أضفت مذهبا ودينا وهذا ما جعل فجوة التواصل بين الشرق والغرب تتسع وهذا لانتشار النزعة المادية البعيدة عن المعارف الروحية يقول : René Guenon "أن الشرق يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص فإنه اصدق وأتموأوسع استيعابا للوجود بدلا من تصنيف نزعته في عالم المادة فقط"

وان كل معرفة قد أعطيت للإنسان في البدء ثم أخذت تختفي تدريجيا بتوالي العصور وتنتقل من عالم الروح إلى عالم المادة"

وما يمكن الخلوص إليه هو أنه يستند التأثير الفلسفي للثقافات ما هي إلا استمرارية للموروث النبوي الإدريسي الذي انتهى اكتماله عند حكماء المسلمين وان النزعة التصنيفية ما هي إلا آلية دفاعية للمحافظة على التوازن العقلي لاتجاه العقلنة وان التأويل الصوفي القائم على الرمز والرمزية يختلف عن التأويل الحدائي الذي لا يعدو عملية إسقاطية لخلفية دينية وإيديولوجية.

فالتصوف كتجربة عرفتها الملل والأديان وان اختلفت إشكاله مرجعية روحية وثقافية وحضارية للخروج من المأزق التآزمي الذي يحياه الإنسان المعاصر من فقدان القيم الروحية وسيادة القي م المادية والشخصانية ونزعة كراهية الآخر. فالمطلوب ليس وضعه في متحف الأفكار أو مأسسته أو صياغته في نسق إيديولوجي إنما إدماجه كتجربة روحية في حياتنا الاجتماعية والثقافية. تعيد للإنسان قيمته الحقيقية وتزوده بنظرة عميقة عن الوجود والله والغاية من الوجود الإنساني.

## المراجع

- التصوف الإسلامي المقارن وتأثير الحضارة الإسلامية في الغرب ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع اربد الأردن 2013
- التصوف الأندلسي أسسه النظرية واهم مدارس دار الثقافة للنشر والتوزيع دار البيضاء ط 2005.1
- عبد الباقي مفتاح بحوث حول مفاهيم وكتب الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي تقديم عبد الإله عرفة دار الكتب العلمية بيروت ط 2011.1

- موسوعات افلاطين ترجمة فريد جبر- مراجعة جرار جهامي وسميح دوغيم، مكتبة لبنان ناشرون ط1 1967
- نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط (الجزائري قمة الثقافة 207) حميدي خميسي
- نظرات في التربية الروحية عبد الباقي مفتاح دار الكتب الحديثة اربد الأردن 2014

- 
- <sup>1</sup> - Rene Guenon ، التصوف الاسلامي المقارن وتأثير الحضارة الاسلامية في الغرب ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع اربد الاردن 2013 ص07.
- <sup>2</sup> - ReneGUENON التصوف الاسلامي المقارن وتأثير الحضارة الاسلامية في الغرب ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع اربد الاردن 2013 ص21.
- <sup>3</sup> - التصوف الاسلامي المقارن ص 22.
- <sup>4</sup> - معمد العدلوني الادريسي -التصوف الاندلسي اسسه النظرية واهم مدرسه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، دار البيضاء - ط1 2006 ص.16.
- <sup>5</sup> - مفتاح عبد الباقي ،بحوث حول كتب لابن العربي ص.160.
- <sup>6</sup> - يحيى عبد الواحد ،نظرات في التربية الروحية ،عبد الباقي مفتاح ،دار الكتب الحديثة ص 3 ،اريد ، الاردن ، 2014 ص.207.
- <sup>7</sup> - معمد العدلوني الادريسي -التصوف الاندلسي اسسه النظرية واهم مدارسه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، دار البيضاء - ط1 2006 ص.207.
- <sup>8</sup> - بحوث حول كتب الشيخ الاكبر عبد الباقي مفتاح ص85.
- <sup>9</sup> - المرجع نفسه ، ص85.
- <sup>10</sup> - المرجع نفسه ، ص85.
- <sup>11</sup> - المرجع نفسه ، ص85.

- 
- <sup>12</sup> - حميدي خميسي نشأة التصوف في المغرب الاسلامي الوسيط الجزائر دار الثقافة 2007 ص131.
- <sup>13</sup> - نظرات في التربية الروحية عبد الواحد يحيى ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة اريد الاردن 2014 ص05 .
- <sup>14</sup> - المرجع نفسه، ص19 .
- <sup>15</sup> - نظرات في التربية الروحية ص124.
- <sup>16</sup> - المرجع نفسه، ص122.
- <sup>17</sup> - تاسوعات افلاطين، ترجمة فريد جير، جيرارد جيهاي و سميح دغيم، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت ، ط 1، 1967 ص700.
- <sup>18</sup> - عبد الباقي مفتاح ، بحوث حول كتب الشيخ الأكبر، ص 86.
- <sup>19</sup> - المرجع نفسه، ص 86.